

الخطر، وأنه معرض للموت في كل لحظة، يحمل هذه نفحة من إبراهيم خليل الرحمن في نفسه ويغرس روح إسماعيل عليه السلام في ولده. والإثنان أسلما لله تعالى.

وفى هذا يصبح الولد من الباقيات الصالحات. هو زينة الحياة الدنيا وهل هناك زينة أجمل من الشباب المؤمن العامل للوطن والعقيدة؟.

والمال المرصود للخير، المال المزكى المكتسب من حلال. والمتجه إلى الحلال والمعد للإنفاق في سبيل الله.. هذا المال يحمل الروح الإبراهيمية أيضاً.

وبهذا عندما تتفخ هذه الروح في حياة الأسرة يتحول مالها وأبنائها من مجرد زينة الحياة الدنيا إلى جزء من الباقيات الصالحات بل يصبحان زينة وباقيات صالحات معاً.

ولقد كانت أموال صحابة رسول الله عليه الصلاة والسلام – والذين اتبعوهم بإحسان زينة المال وباقيات صالحات. وكذلك الصالحون من أبنائهم كانوا زينة الحياة الدنيا وباقيات صالحات. تركوا لنا العلم النافع والقعدة الصالحة. فلا تعارض بين الأمرين إلا إذا جعلت نفوسنا المال والبنين مقدمين على أمر الله وطاعته، والأمل القريب فيهم يحجب عنا الأمل الباقي في أن نكون معهم ويكونوا معنا على طريق الله وطاعته مبدؤها أمر الله ومنتهاها رضوان الله ﴿يَتَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مَّرْضِيَةً ﴿٢٨﴾ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ﴿٢٩﴾ وَادْخُلِي جَنَّتِي ﴿٣٠﴾ (الفجر ٢٧ – ٣٠).

٣٠ – ولا يظلم ربك أحداً

يقول الله تعالى:

﴿ وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ ﴿٢٧﴾ وَغَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ جُعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٢٨﴾ وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ

يَوَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا
عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿

هذا هو الحديث الخاتم في القسم الأول من دروس من سورة من سورة الكهف نقف فيه عند مشهد الحساب والجزاء في الآخرة. لبدأ القسم الثاني - بتوفيق الله - بقوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ﴾ وفيها ربط بين قصة الخلق والعمل في الدنيا والجزاء في الآخرة.

وأول ما تحسه وأنت تقرأ هذه الآيات الكريمة: جلال الله وعظمته.. وكيف تنتقل الآية في سرعة بين أضخم الحجوم وأصغرها فلا يضيع شيء في مشاهد "القيامة" ، وتبدأ الآية بقول الله: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً ﴾

هذه الجبال يصفها القرآن في آيات أخرى فيقول عنها في دنيانا - دنيا العمل والاختبار:

- ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴾ (النبا: ٦-٧)
- ﴿ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ هَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا لَمْ يَلْمُوكَ لََّا يَعْلَمُونَ ﴾ (النمل: ٦١).

وصف الله هذه الجبال بأنها رواسي شامخات: ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَكُم مَّاءً فَرَاتًا ﴾ (المرسلات: ٢٧)

ما لهذه الجبال الراسية الشامخة وهي أوتاد الأرض قد تغير أمرها في الآخرة، ويصفها المولى جل وعلا - بقوله: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ ﴾

أول المشهد أن تسير الجبال إلى أين؟ ومرة نرى وصفها في مشهد القيامة ﴿ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ﴾ (القارعة: ٥) ومرة نقراً قول الله: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ ﴾ (النمل: ٨٨) ومرة نقراً:

﴿ وَدُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًا ﴿٥٦﴾ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا ﴾ (الواقعة: ٥-٦) الجبال الراسية

الشامخة.. عهن. سائرة. هباء

وانكشف وجه الأرض فإذا هي بارزة لا ترى فيها عوجا ولا أمتا كأن المشهد أمامنا خلا من كل ما يميزه لا جبال. أرض منبسطة ثم يأتى مشهد ثان تتشقق الأرض. ويخرج من جوفها الخلائق من لدن خلق الله الخلق إلى أن أفناهم جميعا بالموت.. وتلقى الأرض ما فيها. يخرج الخلائق كالجراد المنتشر كالفراش المبتوث. مهطعين إلى الداع، مسرعين في الاستجابة لا يتخلف أحد وتأكيد بقوله تعالى: ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ الأنبياء والمرسلون الصالحون. الظالمون والمظلومون. المتكبرون والمتواضعون. الملوك وسواد الناس على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وعصورهم وديارهم.. ﴿ وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾

﴿ وَعَرَضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًا ﴾ ما ترتيب الصفوف؟ الله أعلم كل الذى نعرفه في الدنيا صفوف التمايز في الحياة و صفوف التساوى في الصلاة وجموع التساوى في مناسك الحج.

وعرضوا على ربك صفاً: لا يحجب أحد أحداً. لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صواباً.

ويسمعون من الحق جل وعلا قوله: ﴿ لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ هذا خلق جديد بعد الخلق الأول، وأنتم أيها المكذبون ﴿ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي جَعَلْتُ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴾ كفرتهم بالبعث والنشور والزعيم هو الاعتقاد الخاطيء، فهذا يوم البعث الذى كنتم به تكذبون صدق الله العظيم: ﴿ قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾ (الواقعة: ٤٩ - ٥٠).

وأنت تلاحظ أن أفعال العرض والحساب ماضية.. والفعل الماضى هنا يفيد قوة الحدوث كأننا شهدنا الآخرة: وحشرناهم، وعرضوا، ووضع الكتاب، وهذا كثير في القرآن الكريم أى استخدام الأفعال الماضية في وصف مشاهد الآخرة كأنها حدثت ونحن نسمع عنها بعد الحساب.

ونقرأ مشهداً كأننا فيه حضور مشهود ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَوُضِعَ
الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ
لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾

وتصور - بقدر ما يستطيع العقل البشرى أن يتصور - هذا الكتاب. ولكل
إنسان كتاب، منهم من يأخذ كتابه بيمينه، ومنهم من يأخذه وراء ظهره، أما
الذي يأخذ كتابه بيمينه فيستطيع القراءة، ولكن كيف يقرأ والإنسان كتابه
وراء ظهره؟ ويقرأ ماذا؟ تاريخه كله ﴿ مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا
كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ وتشهد جوارح الإنسان عليه تعينه على التذكر.. كل جارحة
تقول: فعلت كذا وكذا.. هل تشهد جميعاً في وقت واحد أم تشهد متتابعة؟
وكيف ينتقل هذا الإحساس ليتجمع في عقل الإنسان؟ وأى يقظة تكون في
الذاكرة لتستوعب هذا كله؟ وصدق الله العظيم: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا
فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ (ق: ٢٢).

وتأمل هذه الكلمة، فتري المجرمين مشفقين مما فيه، هذا عن المجرمين،
أما الصالحون فقد وصفهم الله في هذا المشهد العظيم بقوله ﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانُكُمُ الْيَوْمَ جَنَّتُ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (الحديد: ١٢).

ولا ظلم يوم القيامة وإنما عدل وجزاء ورحمة. ويقول الله تعالى في ختام الآية:
﴿ وَلَا يَظْلَمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾.

فالحاضر هو ما عملوا. موقف اختفى فيه الزمن فإذا الماضي قد أصبح
حاضراً مشهوداً.. فعن أى الأمور يسأل الله عباده؟

فلتسمع إلى رسول الله ﷺ في الحديث الشريف الذى يرويه عنه عبد الله بن
مسعود (لا تزول قدم ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يسأل عن عمره فيم

أفناه، وعن شبابه فيم أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وماذا عمل فيما علم.. (رواه الترمذى).

ومع هذا الحساب نذكر رحمة الله وستره:

قيل لابن عمر رضي الله عنهما: كيف سمعت رسول الله ﷺ يقول في النجوى: (والمراد هنا مناجاة الله لعبده المؤمن في الآخرة) قال: سمعته يقول: (يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه [أي ستره ولطفه] فيقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم. ويقول: أعملت كذا وكذا؟ فيقول: نعم فيقرر [أي فيقرر بما عمل من ذنوب] ثم يقول: إني سترت عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم [وفى هذا بشرى للمؤمن المستور.. إلا أن يكون ما عمل حقا من حقوق العباد فهذا يؤخذ عليه العبد]. ثم يعطى صحيفة حسناته [أي بيمينه] وأما الكفار [وكذا المنافقون والظالمون] فينادى على رءوس الأشهاد: هؤلاء الذين كذبوا على ربهم. ألا لعنة الله على الظالمين) (رواه الشيخان).

وعن عائشة - رضي الله عنها - عن النبي ﷺ قال: (ليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك. فقلت: يا رسول الله أليس قد قال الله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿ فقال: إنما ذلك العرض، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا عذب). (رواه الشيخان والترمذى).

فاستقصاء الحساب ومناقشته لا يكونان إلا لمن يعذبون، وأما الحساب اليسير فهو عرض الأعمال على المؤمن فيقرر بها، فيغفر الله له كما سبق في الحديث النبوي. نسأل الله أن يجعلنا منهم. ونختم هذا الحديث وهذا القسم الأول داعين الله بما تعلمنا من رسوله ﷺ.

عن ابن عمر - رضي الله عنهما - قال:

قلما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء: (اللهم أقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك. ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك. ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا. ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا (أي بهذه الحواس طول حياتنا وانفعنا بآثارها بعد الممات) واجعل ثأرنا على من ظلمنا. وانصرنا على من عادانا. ولا تجعل مصيبتنا في

ديننا ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا. ولا تسلط علينا من لا يرحمنا)
(رواه الترمذى).

وعن شداد بن أوس رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا أن نقول: (اللهم إني أسألك الثبات في الأمر. وأسألك عزيمة الرشد. وأسألك شكر نعمتك وحسن عبادتك. وأسألك لساناً صادقاً وقلباً سليماً. وأعوذ بك من شر ماتعلم. وأسألك من خير ما تعلم. وأستغفرك مما تعلم. إنك أنت علام الغيوب) (رواه الترمذى).

عن زيد بن أسلم: قال عليه الصلاة والسلام: (اللهم آت نفسي تقواها. وزكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولاها. اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع ومن قلب لا يخشع ومن نفس لا تشبع. ومن دعوة لا يُستجاب لها) (رواه مسلم).

عن عائشة - رضی اللہ عنہا - قالت: قال رسول الله ﷺ (أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) (رواه الترمذى والنسائى).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دروس من سورة الكهف

القسم الثاني

obeikandi.com

من قوله تعالى ، وإذ قلنا اسجدوا لآدم... (الآية ٥٠) إلى آخر السورة.

٣١- مع آدم وقصة الخلق

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾

نحن أمام هذه الآية من السورة على مفرد طرق:

أولاً- أن نقف عندها وقفة سريعة بقدر ما تمس السياق العام للعبارة. هكذا تصنع التفسير الكاملة للقرآن، مع الإحالة إلى ما سبق عرضه عن آدم في السور السابقة وبخاصة سورتي البقرة والأعراف.

ثانياً- أن نقف عندها وقفة طويلة، نحاول بها أن نضم أطرافها، لأن هذه الأحاديث تقتصر على سورة الكهف وحدها، وتمس قصة آدم من أكثر من زاوية.. ولا نستطيع فيها الإحالة، ولا نملك إلا توسعاً في الشرح.

ذلك لأن قصة آدم تمس كل إنسان. فنحن جميعاً أبناء آدم. وفي أعماق كل منا إحساس بأن بدءه ومساره في الحياة ومنتهاه، مرتبط بهذه القصة..

وليس منا من لم يسأل نفسه: لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ وما علاقتي بخطيئة أبي الأول؟ وإذا كان هو قد أخطأ، فلماذا هبطنا جميعاً من الجنة إلى الدنيا، وفيها كل هذه المعاناة؟

هذه الأسئلة ونظائرها، ترد إلى النفس في حالات الألم والمرض والضعف، وتضع الإنسان في مواجهة القدر الذي كتبه الله، ولا يملك له دفعاً.

وقد تمر أيام وأعوام، دون أن ترد هذه الأسئلة إلى ذهنه، ويصرفه عنها الكدح في الحياة، أو السعادة بها، أو الانهماك في مسؤولياتها. ولكنها تظل كامنة، ثم تصعد إلى مستوى الشعور في فترة تأمل، أو تندفع كالبركان في فترة ضيق وإحباط..

وفي حوار مع بعض الزملاء العاملين في العيادات النفسية في العالم الجديد.. ومع مرضاهم من غير المسلمين بخاصة، كان هذا التساؤل مطروحاً:

-لماذا جئت إلى هذه الحياة؟ وما علاقتي بأبي الأول؟ وما ذنبي إذا كان هو قد أخطأ؟..

بل إن بعضهم ممن لم يبدؤوا حياتهم مسلمين كان اهتداؤهم إلى الإسلام، منبثقا من هذه التساؤلات، وقائما على دراسة مقارنة عن بدء الحياة الإنسانية، كما وردت في أكثر من دين.. هذا إذا كان بحثهم يدور في الإطار الديني والمقارنات، أما البعض الآخر.. فأثر ترك الأمر جميعا، وحاول أن يكون هو المسئول عن حياته وموته.. وإذا كان قد جاء إلى الحياة دون اختيار، فمن حقه أن ينهيها وقت ما شاء... ولهذا النفر من المنتسبين إلى الماديين، أو الوجوديين أو العلمانيين، حديث مقبل..

لعل في هذه المبررات ما يدعو إلى شئ من الإفاضة في قصة آدم، وإن لم ترد عنها في سورة الكهف إلا هذه الآية.. وهي قد جاءت وسط مشاهد الآخرة وما سبق أن قام به الإنسان في الدنيا.. وكأن السياق يربط البدء والحياة والمعاد في نسق واحد.. إنه الحياة بكاملها خلقا وعملا وجزاء..

ونعود إلى قصة آدم.. ولنذكر أنه أول نبي. وأن النبي الخاتم محمدا عليه الصلاة والسلام - في ليلة المعراج - لقيه في السماء الأولى.. ومن ذرية آدم جاء أولو العزم من الرسل والأنبياء، والصديقون والشهداء.. كما جاء الذين ظلموا أنفسهم، ولم يتبعوا سبيل المؤمنين.

وصدق الله العظيم.. ﴿فَمَنْ أَتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٢﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ (سورة طه: ١٢٣: ١٢٦)

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ﴾

ماذا كان قبل هذا المشهد؟ يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ (البقرة)

ونتأمل قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ﴾ ونقف طويلاً عند كلمة (لكم) أي كرامة؟ أن يخلق الله لنا السماوات والأرض..لكم: آدم وذريته.. أنت وأنا.. وأباؤنا من قبلنا.. وأهلنا ومن حولنا.. والأجيال من بعدنا. هؤلاء جميعاً من الأب الأول إلى آخر ذريته في حياتنا الدنيا تشملهم هذه الكرامة((لكم)).

ونتأمل التأكيد بعدها ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ هذه الأرض الممتد الذلول، بكل غطائها الصخري والنباتي والحيواني. هذه البحار وما تحوي من ثروات. هذا الغلاف الجوى بهوائه ورياحه وسحابه وأمطاره. هذه الدورة المائية بين السماء والأرض، التي تبدو فيها وحدة الخلق ووحدة الخالق.

ومع المطر النازل الذي تحيا به الأرض بعد موتها، ينزل الوحي من السماء على القلوب التي أعدها الله لتقبله: المرسلين والأنبياء.. ومن قلوبهم وألسنتهم وعقولهم تفيض الحكمة وتتحدد مسالك الهدى.

من أجل هذا يقترن القرآن - كثيراً - نزول المطر ونزول الوحي. حياة الأرض وحياة القلوب. إكرام الأرض بالنماء، وإكرام الإنسان بالتقوى. ولنعد إلى سورة الرعد لنقرأ آيتين:

- الأولى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: ١٧).
- الثانية: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الرعد: ١٩).

ونرى فيها آثار رحمة الله، فالأمر من أوله كرم ورحمة. كرم تقرؤه في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء: ٧٠).

ولقد كان الإنسان من أول أمره مخلوقاً كونياً جامعاً بين الأرض والسماء:
﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِيقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾ (ص: ٧١، ٧٢).

الطين مادة الأرض. ليس قطعة محددة من الأرض. ولكنه كل الأرض. ولنقرأ حديث المصطفى عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عز وجل خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض: فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهل والحزن، والطيب والخبيث)) (رواه أبو داود الترمذى عن أبي موسى الأشعري)
الأحمر والأسود تدل على اختلاف الألوان. السهل والحزن تدل على اختلاف الطبائع سماحة ووعورة، لينا وقسوة، والطيب والخبيث تدل على اختلاف الأخلاق..

وتقرأ مع هذا قول الله تعالى:

﴿ وَمِن آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفَ الْأَلْوَانُ وَاللَّوْنُكُمْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الروم: ٢٢).

وبهذا يبدو الجزء المتقبل من الكيان الإنساني، ويأتى الوحي من السماء، والعلم الذى يعلمنا ربنا، والذى نطلبه في الأنفس والآفاق امتثالا لأمره.. فيأتى العلم خيرا لنفوس، وتتحرف به نفوس. وصدق الله العظيم:

﴿ وَنُنزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ (الإسراء: ٨٢).

ونقف هنا عند مبدأ اللقاء بين العقول والقلوب من ناحية، والعلم الذى يبعث الله به رسله، والذي يكشفه الإنسان من ناحية أخرى.

نقف عند مبدأ اللقاء الذى يؤكد الوجود الكونى للإنسان والذى يجمع فيه بين المكونات الأرضية والسماوية.. وهو الكائن الذى اختاره الله لهذا التكوين.. وبهذا التكوين اختار له مهمة في الحياة..

-فكيف أعد الله الأب الأول لهذه المهمة؟

هذا هو السؤال الذى سنحاول الإجابة عليه، متذكرين الإحسان في الخلق إلى جوار الكرامة والرحمة. هذا الإحسان الذى نقرؤه في قوله تعالى:

﴿ ذَلِكْ عَلِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٧﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (السجدة: ٧).

وفى ضوء الإحسان والإكرام والرحمة نحاول أن نتخذ إلى الله سبيلاً.

٣٢- صراع بين الخير والشر

إذا كان خلق الإنسان جامعاً بين الإحسان والتكريم والرحمة، فلقد جاء العلم تكريماً ثانياً للإنسان بعد الخلق.

وليتذكر كل إنسان - مهما يكن موقعه على خريطة الأرض أو عصور التاريخ - المدرسة الأولى التى ذكرها القرآن الكريم.

المعلم فيها هو الله سبحانه وتعالى

والمتعلم فيها هو الأب الأول آدم عليه السلام

ومادة المعرفة فيها((الأسماء)) أوائل أي شئ.

وفى هذا يقول الله تعالى:

﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة: ٣١، ٣٢)

لم يكن آدم أول المتعلمين.. فالملائكة من قبله تلقوا من الله علماً. والعلم في ذاته كرامة وتكريم. وما أكرم الله به آدم من العلم خصه به، فكان عنده علماً وعند الملائكة - من قبل - غيباً. واستوعب آدم ما علمه ربه.

﴿ قَالَ يَتَعَادَمُ أَنْبِعَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ۖ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي
أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ (البقرة: ٣٣).

هذا أول أمر تلقاه آدم من ربه ﴿ قَالَ يَتَعَادَمُ أَنْبِعَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ ﴾ وقام آدم بما
أمره به ربه. فأول تجربة لآدم كانت نجاحاً: استوعب وحفظ، وكانت عنده
القدرة على الاسترجاع والتذكر.

في هذه التجربة لا نسيان ولا خطأ. وفرق بين الأمرين: النسيان أن يسقط منك
بعض الحقيقة. والخطأ أن تختار غير الحقيقة.

إلى هنا والموقف في طريق التكريم صاعد، دون اعتراض ولا عقبات..

وننتقل إلى مشهد آخر كان فيه آدم شاهداً لتصرفات غيره بعد أن كان
مشهوداً من غيره.

- ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ
الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)

ويأتى هذا المشهد في سورة الكهف في قوله تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ
عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ
بَدَلًا ﴾

ولقد تحدث المفسرون عن إبليس وأصله. ولماذا كان في هذا المشهد؟ وما
علاقة الجن بالملائكة؟ وهل يملك الجن وهو لا يعبد أن يكون مخلوقاً أن يعصى
ربه؟.

وإذا كان الله قد وصف الملائكة أنهم لا يعصون الله ما أمرهم، فكيف
خلق خلقاً قادراً على المعصية؟.

ونستعين بالآية التالية في سورة الكهف وهي قوله تعالى ﴿ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴾
(الكهف: ٥١).

خلق السماوات والأرض غيب، وخلق الإنسان غيب، ولا نملك فيه إلا الوقوف
عند النص القرآني، والأحاديث النبوية الصحيحة.

إن الجن - في القرآن الكريم - خلق آخر غير الملائكة: يقول تعالى:

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٥﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ
نَّارٍ ﴿١٤﴾ (الرحمن: ١٤، ١٥).

ويفرق القرآن بين الجن والشياطين.. والمعنى اللغوي مدخل موضح: مادة: جن
تفيد الاستتار وعدم الظهور والرؤية. تقول: جن عليه الليل إذا ستره. والجن ضد
الإنس. هذا خفي وهذا ظاهر. والمجنون من كان عقله محجوباً. والمجن العدة التي
يتقى بها المحارب عدوه. والجنة هي ذات الشجر الملتف والمتكاثف الذي يستتر من
يدخله. فاشتقاقت الكلمة جميعاً تفيد الاستتار وعدم الظهور، ولا تفيد المعصية
بحال. فالله سبحانه وتعالى ذكر من الجن المؤمن والكافر. ومنهم الصالحون
ودون ذلك. ونستطيع أن نرجع إلى سورة الجن لنرى بعض صنوفهم:

﴿ وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا آهْدَىٰ ءَامَنَّا بِهِ ۗ فَمَنْ يُؤْمِنُ بِرَبِّهِ ۗ فَلَا تَخَافُ خَوْفًا وَلَا
رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ ۗ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَٰئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا
﴿١٤﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ (الجن: ١٣-١٥).

أما مادة ((شطن))، ومنها الشيطان، فتفيد البعد. والشطن الحبل الطويل
يستخرج بدلوه الماء من البئر. واستخدام اللفظ للدلالة على أي خبيث التصرف أو
الأثر.. كأنه بعيد عن النفس والخير. بعض العرب تسمى بعض الحيات شيطانا.
ولغويا: الشيطان كل عات متمرد من الإنس والجن والدواب

تبقى كلمه ثالثة في هذا النسق بعد: الجن والشيطان، وهي: إبليس.

لغة: إبليس الرجل قطع به. وسكت. وإبلس من رحمة الله أي: يئس، ومنه سُمى إبليس (لسان العرب)

فمدلول الجن الاختفاء وتقابل الإنس. ومن الجن مؤمن وكافر. ومدلول الشيطان: البعد، وإبليس: اليأس من الرحمة والانقطاع. ولا يستخدم المدلولان إلا في الشر والإيذاء، وبخاصة في الجانب النفسى من حياة الناس.

وبهذا التحديد للمفاهيم تتضح أمامنا الآية: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبْلٰٓيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖ ۗ﴾ وندرك أن هذا من غيب الله الذى لا نعرفه إلا بالوحى، ونقف عند عبرته الكبرى الباقية: وهى الصراع بين الخير والشر. والطاعة والمعصية، والالتزام بحدود الله أو التعدى.. وهو صراع يلقيه كل إنسان في حياته، وتظل معه القصة حية.

ولقد كانت مخالفة إبليس لخالقه سبحانه وتعالى.. وهى مخالفة لأمر صريح: اسجدوا لآدم. فكان الرد رفضاً وحتييات رفض، وبين القرآن أربعة جوانب في رفض إبليس، هي غاية ما يتخذه العصيان

- الأول: مبدأ الرفض ذاته أو المعصية.
- الثانى: الحالة النفسية المصاحبة للرفض.
- الثالث: الحالة الفكرية المصاحبة.
- الرابع: العناد والإصرار وإخضاع المستقبل لرفض الحاضر.

ولتنظر في آيات القرآن لتتبين هذه الجوانب الأربعة:

- فى آية سورة الكهف، يصف الله موقف إبليس فيقول..

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلٰٓئِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا اِلَّا اِبْلٰٓيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ اَمْرِ رَبِّهٖ ۗ﴾.. هذا هو الرفض

- وفى قوله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾

واستكبر هنا: هو الجانب النفسى المصاحب للرفض

وفى قوله تعالى..

﴿ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء: ٦١)

نرى الجانب الفكرى المصاحب، وهو تفضيل النار على الطين، دون نظر إلى الطاعة في ذاتها.

وفى قوله تعالى في سورة الإسراء.

﴿ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَ ۖ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (الإسراء: ٦٢).

نرى الإصرار، ولقد كان طلب الإنظار لمزيد من غواية بنى آدم.

هذه الجوانب الأربعة، ألا تراها في بعض شياطين الإنس، وإن تعدد أسبابها؟ وهؤلاء الذين رفضوا الإسلام في مكة من الملأ من قريش، تمثلت فيهم هذه الجوانب جميعا، وإن تباينت مكوناتها ومدى الإصرار فيها..

كان منهم الرفض، والاستكبار، ومحاولة التبرير العقلى

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف: ٣١)

ويرد عليهم المولى سبحانه ﴿ أَهْمُ يَقْسُمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (الزخرف: ٣٢)

وكان منهم العناد. واستمع قول الله تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤) وقوله تعالى ﴿ فَأِيَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بَيَّاتٍ اللَّهُ تَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام: ٣٣).

وكما نرى تشابه بين موقف كفار قريش وما كان من عصيان إبليس، نراه مع أكثر من نبي آذاه كفار قومه. وتقرأ قول الله تعالى عن نوح وقومه:

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ (نوح: ٥ - ٧).

فمشاهد قصة آدم قديمة متجددة. وروايتها أكثر من مرة، بأكثر من زاوية، تدلنا على استمرارها في تاريخ الإنسانية، مع تنوع صورها ووجوب الحذر من مداخل الشيطان إلى النفس، ومن تبعه من شياطين الإنس.

٣٣- تحليل لخطأ آدم

لم ترد الإشارة إلى خطأ آدم صراحة في سورة الكهف، وإن جاءت في مواقع أخرى من القرآن كسورة البقرة والأعراف وطه..

ونقف هنا عند مقارنة بين خطأ وخطأ.. خطأ إبليس وأركانها، وقد سبق أن ذكرناها وهي أربعة: العصيان، والاستكبار، والتبرير الفكري، والإصرار على الخطأ.

ولم يكن الأمر من آدم كذلك..

لقد شهد الحوار ورأى نتيجته، وكان عليه أن يأخذ من هذا الموقف الدرس الذي ينفعه في المرحلة التالية من حياته، وهي مرحلة السكنى في الجنة، بعد مرحلة الخلق والتعليم وفيها شهد عصيان إبليس ونتيجته المريرة، وتحددت به عداوته لآدم وأولاده..